المحاضرة الثانية.....تاريخ علوم القرآن

تاريخ علوم القرآن :

عهد ما قبل التدوين

كان الرسول ﷺ وأصحابه يعرفون عن القرآن وعلومه ما عرف العلماء وفوق ما عرف العلماء من بعد ، ولكن معارفهم لم توضع على ذلك العهد كفنون مدونة ولم تجمع في كتب مؤلفة ؛ لأنهم لم تكن لهم حاجة إلى التدوين والتأليف .

أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه فلأنه كان يتلقى الوحي عن الله وحده. والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ليجمعنه له في صدره وليطلقن لسانه بقراءته وترتيله وليميطن له اللثام عن معانيه وأسراره. لقوله تعالى : لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ [سورة القيامة آية: ١٦ – ١٩].

ثمّ بلّغ الرسول ﷺ ما أنزل عليه لأصحابه، وقرأه على الناس على مكث أي: على مهلٍ ، ليحسنوا أخذه، ويحفظوا لفظه، ويفهموا سره، ثم شرح الرسول ﷺ لهم القرآن بقوله، وبعمله، وبتقريره، وبخلقه: أي بسنته الجامعة لأقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته، مصداقا لقوله سبحانه:(وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[سورة النحل آية: ٤٤].

وكان الصحابة عربا خلّصا، متمتعين بجميع خصائص العروبة ومزاياها الكاملة من قوة في الحافظة، وذكاء في القريحة، وتذوق للبيان، وتقدير للأساليب، ووزن لما يسمعون بأدق المعايير، حتى أدركوا من علوم القرآن ومن إعجازه بسليقتهم وصفاء فطرتهم، ما لا نستطيع نحن أن ندركه مع زحمة العلوم، وكثرة الفنون.

وكـان الصـحابة رضـوان الله علـيهم مـع هـذه الخصـائص أميـين، وأدوات الكتابـة لـم تكـن ميسـورة لـديهم، والرسـول ﷺ نهـاهم أن يكتبـوا عنـه شـيئا غيـر القـرآن، وقـال لهـم أول العهـد بنـزول القـرآن فيمـا رواه أبـي سـعيد الخـدري ﷺ : «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير

القرآن فليمحه. وحدثوا عني ولا حرج ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار". وذلك مخافة أن يلتبس القرآن بغيره أو يختلط بالقرآن ما ليس منه ما دام الوحي نازلا بالقرآن. فلتلك الأسباب المتضافرة لم تكتب علوم القرآن كما لم يكتب الحديث الشريف ، ولكن رسول الله ﷺ قد أذن لبعض صحابته بعد ذلك في كتابة الحديث ، وظل االقرآن يعتمد على الرواية بالتلقين في عهد رسول الله ﷺ ، وفي خلافة أبي بكر وعمر ﷺ

وبعـد ان اتسـعت رقعـة الإسـلام واخـتلط العـرب الفـاتحون بـالأمم التـي لا تعـرف العربيـة وخيـف أن تـذوب خصـائص العروبـة مـن العـرب مـن جـراء هـذا الفـتح والاخـتلاف بـل خيـف علـى القـرآن نفسـه أن يختلـف المسـلمون فيـه إن لـم يجتمعـوا علـى مصـحف فتكـون فتنـة فـي الأرض وفسـاد كبيـر ، ولهـذا أمـر عثمـان بـن عفـان ﷺ أن يجمـع القـرآن فـي مصـحف وأن تنسـخ منـه مصـاحف يبعـث بهـا إلـى أقطـار الإسـلام وأن يحـرق النـاس كـل مـا عـداها ولا يعتمـدوا سـواها، وبهـذا العمـل وضـع عثمـان ﷺ الأسـاس لمـا نسـميه علـم رسـم القرآن أو علم الرسم العثماني .

ثم جاء الامام علي عليه السلام فلاحظ العجمة تحيف على اللغة العربية وسمع ما أوجس منه خيفة على لسان العرب فأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع قواعد النحو، صيانة لسلامة النطق، وضبطًا للقرآن الكريم وحمايته من العبث والخلل وخط له الخطط وشرع له المنهج ، وبذلك يكون الامام علي عليه السلام قد وضع الأساس لما نسميه علم النحو ويتبعه علم إعراب القرآن.

ولكـن الصـحابة كـانوا مضـرب الأمثـال فـي نشـر الإسـلام وتعاليمـه والقـرآن وعلومه والسنة وتحريرها تلقينا لا تدوينا ومشافهة لا كتابة.

ثم انقضى عهد الخلافة الرشيدة ، ولكن مشاهير الصحابة والتابعين كانت همتهم متجهة إلى نشر علوم القرآن بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين. فكان من الصحابة ﷺ ابن عباس وابن مسعود وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير ، وعلى رأس التابعين في تلك الرواية مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم بالمدينة وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن ومالك بن أنس من تابعي التابعين رضي الله عنهم أجمعين. وهؤلاء جميعا يعتبرون أنهم واضعو الأساس لما يسمى علم التفسير وعلم أسباب النزول وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم غريب القرآن ونحو ذلك ٠